



رسالة القاهرة . من بغداد والموصل

ومحمد خير ... والعجيب انه كانت معهم بنات .. فاطمة وسعاد
وليلي ومها ... شعرنا بالشبل حين اكتشفنا الفتيات . زال خجلنا
حين شعرنا بجديفة غنائهن . تحمسنا بعض الشيء فشاركنا بالتصفيق .
بعد دقائق كنا نغني . وكان احدهم قد خرج بأول بندوية « بشحمها »
وشرع يرقص بها قبل ان نبدأ معا في تنظيف السلاح . وفي السيارة
بدأ النقاش .. في التاريخ !

منذ ذلك الحين ، لم تتوقف عن المسيرة التي خلقت لكل منا
مصيره الفردي ، ومنحتنا جميعا روح الجيل الذي نحمل شهسادة
ميلاده وبصمته على الحياة .

لم تكن مهمتنا هي المناقشة وحدها . كان عملنا الاساسي هو
ان نصنع بعضنا البعض ، وان يصوغ كل منا روح الآخرين الذين
يصوغون روحه وعقله في نفس الوقت . هذا الجيل لم يمنع مرة
واحدة ، ولم يتخلق في دفعة واحدة دون استمرار . ذلك لانه كان
قد قدر له ان يشهد اكثر من انتصار وان يتذوق اكثر من هزيمة ،
وهو مع ذلك لم يكمل مسيرته بعد ولم يصل الى سمتها .

من القاهرة جاء معي شاعر وفنسان تشكيلي ونافذ من نفس
الجيل : محمد عفيفي مطر واحمد مرسي وصبري حافظ . وفي الطريق
الى الموصل التقينا برجاء النقاش واحمد عبد المطي حجازي . وكان
عبد الوهاب البياتي قد سبقنا من القاهرة الى بغداد . كعادته وفي
مكانه . يتقدم الجيل كله قليلا ثم ينظره لكي يعود فيسبقه . فكانه
يشق بمفرده طريقا يصعب ان تشقه الجماعة متكاملة : من بغداد هو
ولكنه ليس من العراق وحده . عاش بجسده في مصر وفي لبنان .
تجول في المغرب والجزائر واقام في سوريا . هبط جنوب الجزيرة ..
وها هو يعود لكي يصعد الى شمال العراق آتيا من القاهرة عن
طريق بغداد .

حينما صافحت رجاء وحجازي في محطة الموصل كان لا بد ان
استرجع تلك السنوات التي كتب فيها رجاء « أدب وعروبة وحرية » ،
وان استعيد كل تلك اللحظة التي رأيت فيها احمد حجازي للمرة
الاولى يلقي قصيدة عن سوريا ، يطسوح برأسه ويشمخ كفارس :
« يا ارض سورية .. يا حلم عينية .. » . كان لا بد وانا ارى هذا
الجزء الحميم من القاهرة الانتماء العربي ، وكشف الذات القومية في
مسيرة المعركة الوطنية الطويلة عبر مساحاتها في الوطن العربي كله ،
كان لا بد وان استرجع كل تلك السنوات بلحظاتها . نمونا في هذه
الكتابات والقصائد نموا منح مصر حقها في جذورها مثلما منحها
نمو الجيل الاول في القرن الماضي حقها في التجدد والثور على
مسيرتها الوطنية الخاصة . كان لا بد لهذا الجيل ان يدافع عن
روح التجدد التي تخلى عنها روادها ، وان يدافع في نفس الوقت
عن الجذور المكتشفة ، وان يؤكد حقه في التفكير والاعتقاد والفعل ،
مدافعا بهذا عن معنى وجوده كجيل يواكب ويصنع المجرى الجديد
لوجود مصر والقاهرة في المستقبل ، وهو يقوم بنفس اللحظة بازالة
ركام الاكاذيب والزيف عن المجرى الحقيقي القديم . في السياسة ،
وفي الايديولوجية ، في الفكر النقدي وفي النقد التطبيقي ، في

في عام واحد زرت بغداد وزرت دمشق . حلم اللقاء بالمدن
البعيدة التي اكتشف جيلنا انتماءه وذاته حينما اكتشف حقيقته
جذوره فيها وجنودها فيه .. يتحقق . لم يكن اكتشافنا في القاهرة
1956 انفعالا ، ولم يكن مجرد هزة عاطفية . لم يكن استعادة شعرية ،
ولم يكن تلبية لنداء خطابي ، او ترديدا لاهازيج المظاهرات .. رغم ان
طريق جيلنا الى هذا الاكتشاف في القاهرة ذروة الحركة الوطنية ذلك
العام ، كان لا بد ان يمر بخطوات الاستعارات الشعرية ، والنداءات
الخطابية وترديد الهازيج .

في السادسة من مساء التاسع والعشرين من اكتوبر عام 1956 ،
كنا في القاعة رقم «٢٢» المخصصة لدراسات قسم الصحافة في كلية
الاداب بجامعة القاهرة ، نتلقى محاضرة الادب الانكليزي . كان
عبد الناصر قد أمم القناة في يوليو ، وكنا قد نجحنا في امتحان
اتمام الدراسة الثانوية . واستقبلنا عبدالناصر العائد من الاسكندرية
بعد تأميم القناة ، وكنا في ميدان محطة مصر اكثر من مليوني شاب ،
كلهم في سن حمل السلاح والتطلع الى التجديد والحرية .. تمسك
بعمودنا حلم الحرية وهو يتحقق رغم مخاوف الآباء . وفي تلك الساعة
من مساء ذلك اليوم دوت صفارة الانذار . وفزعت قناة ، وأسقطت
المسند الخشبي الذي تضع عليه كتبها في المدرج ، وبدأ المسعودان
الثلاثي على مصر . واكتشف جيلنا في مدى ثلاثة ايام عمق انتمائه
العربي . أضرب عمال البترول هنا في الموصل ، حيث كتب الآن في
الواحدة والنصف من صباح الثاني عشر من ديسمبر عام 1971 .
وفجر عمال درعا واللاذقية خطوط البترول . وصرخ طلبة بيروت طالبين
السلاح لمساندة مصر . وكانت دمشق قد كونت حكومة جديدة وطنية
وقومية لتساند مصر في المعركة المقبلة . وقذف نوري السعيد بعسدة
مئات من عمال بغداد وطبقتها في السجون وأعلن الاحكام العرفية ،
وسمح للطائرات البريطانية بضرب مصر من قواعده ، ولم يكن يعرف
انه يعجل بهذا العمل من نهايته على يد شعب العراق العربي . وشدت
توار الجزائر هجماتهم على الجيش الفرنسي ليستنزفوا اكبس قدر
من طاقته فلا توجه منها فرنسا المزيد الى مصر . وفي معسكر « استاد
الجامعة » في الجزيرة كنا ننهيا - نحن متطوعي الحرس الوطني -
الجامعي - للسفر الى المواقع المعينة لنا ، حينما شدت اسماعنا
الى اهازيج لم تكن قد سمعناها من قبل :

حنا البرعة العربية ، ع الناعم والناعمين

عبد الناصر يا جمال هات سلاح وخود رجال

جينا يا مصر جيناكي ... جيناكي ناضل وياكي

ونحقق وحدتنا معاكي ...

ووجدنا انفسنا ننجذب الى المجموعة من متطوعي العراق وسوريا
والاردن ولبنان وفلسطين ، من طلبة جامعة القاهرة ، الذين كانوا
ينتظرون دورهم في تسليم السلاح بترديد اهازيجهم . ما زلت اذكر
بعضهم : مسلم وابو ميزر وبشار وزهير وفسان ونزار وممسوح

ورحلت الى بلد لست ادري اسمها
جعت فيها
وانضمت لطائفة الفقراء بها ،
وانخذت اماما ...

ولكنه يعرف ان هذا الحلم الذي لم يتحقق ، او لم يكتمل
تحققه في عشرين عاما ، ونادت المسيرة اتي حيث بدأت او تكاد ،
يعرف ان هذا الحلم ما زال حلما جديرا بان يعيشه الشاعر من جديد .
يلقي سلامه على التجسيد الخائب للحلم . يفارقه . ليواصل السير :

فوداعا هنا يا اميري
ان لي ان اعود لقيثارتي
واواصل ملحمتي وعبوري
تلك غرناطة تضافي
ويلف الضباب مآذنها
وتغطي المياه سفائننا
وتعود الى قبرك الملكي بها
واعود الى قدري ومصيري
من ترى يعرف الآن في أي ارض اموت
وفي اي ارض يكون نشوري
انني ضائع في البحار
ضائع بين تاريخي المستحيل وتاريخي المستعاد
حامل في دمي تكبتي
حامل خطاي وسقوطي
علمي الآن اذكر صوتي القديم ...

انه لا يمي فقط بالحذر من المدعين الذين صلوا المسيرة وساروا
بغرناطة الى هزيمة جديدة بدلا من النصر الموعود . وانما يعي خطاه
هو ، خطا جيله الذي يتحدث باسمه : سقوطه في احابيل النشوة
ذات البريق الذي يعد بتحقيق الحلم دون جدارة او قوة على تحقيقه :

من ترى يحمل الآن آثام هذا الرجوع الثقيل
المفني الذي طاف يبحث للحلم عن جسد يرتديه
ام هو المفني ان حلم المفني تجسد فيه
هل خدعت بملكك حتى حسبتك صاحبي المنتظر
ام خدعت باغنييتي
وانتظرت الذي وعدتك به ، ثم لم تنصر
ام خدعنا معا سراب الزمان الجميل ؟

الآن تكتمل دورة في مسيرة هذا الجيل بكل ما طرا عليها من
طرق جانبية . الحلم كان واحدا . وكان مدني التجسيد واحسدا
وكان المفني واحدا كذلك . ولكن تفرقت السبل ، وها هي تعود الى
نقطة الالتقى دون ان يرجع احد منا بغير بعض المعرفة وبعض الوعي
والكثير من الاحزان ، واليقين في ضرورة استمرار المسيرة .

جزء هنا من القاهرة ، وجزء من دمشق ، وجزء من بيسروت
او من عدن ، وجزء من بغداد او المغرب ، وئمة اجزاء اخرى من كل
مدينة في دمشق ، في نفس الايام . المهرجان في الموصل والمؤتمر في
دمشق ، دون امكانية اللقاء . وبعض درس « الرجوع الثقيل » يقول ،
بل ان الدرس كله يقول ان بعض اسباب نكباتنا كان هو هذا الانقسام .
العراق يشتعل حماسا بسبب الخليج . ونحن نفكر في سيناء .
ودمشق تبحث عن منفذ الى الجولان . وشعب فلسطين ضاعته منه
فلسطين كلها . وجنوب لبنان يهدده طوفان الصهيونية تهديدا فعليا .
ونحن نذبح بعضنا بعضا بالتصال او الرصاص او الكلمات . لا يكسب
من « المذابح » الا من يبيعون جلودنا ، والا من يشترونها منهم !

سامي خشبة

الموصل

النظرة التاريخية وفي التقييم الجمالي ، في العمل اليومي وفسي
العمل العقلي الذي يحاول ان يتخلص من قيود الزمن ، في كل ساحة
من ساحات وجوده كان على هذا الجيل ان يخترق حصار التجهيل
والجذب الى الوداء والرؤى المشتتة والارهاب والدجل . كان ممن
الطبيعي ان يبدأ من الازايح والرؤى الشعرية . وكان من الطبيعي ان
يحدث ذلك في خضم السنوات التي تلت يوليو 1952 ، وكان من
الطبيعي ان يقف في اعوام 56 ، 57 ، 58 ساعيا نحو « التكوين
العقلي » الجديد ، مطالبا نفسه ومطالبها الواقع بالوضوح في الفكر
والموقف ، بالالتزام في السياسة والعمل النضالي : مكتشفا ان تجدد
الشعر مرتبط بتجديد الواقع كله وباعادة اكتشاف هويته . بان كسر
قيود التخلف الذهني او تجدد القيم الفنية والجمالية انما يعني النضال
ضد الرجعية السياسية والفكرية ، وضد الشوفينية والتعصب
الاقليمي في وقت واحد ، وضد الاستغلال الاجنبي او المحلي وضد
القهر والذل الانسان ، مناضلا في نفس الوقت ضد مفاهيم
او تصورات جغرافية او « بولاي جغرافية » عن الشرق الاوسط ، او
حضارة حوض البحر الابيض ، او « الحضارة » الاسبوية الافريقية . .
الخ ، دون ان يتحول الى رؤية شوفينية مضادة تلتف الارتباط
التاريخي والانساني بين الحضارة العربية وبين ما تبادل معها التأثير
والتفاعل من حضارات وثقافات ، مناضلا ايضا ضد مفهوم
« الاحتراف » في العمل السياسي او الفكري او الفني ، الذي يؤدي
الى وضع « المحترف » نفسه في خدمة المفاجآت او المواقف التكتيكية
المؤقتة ، ويريد في نفس الوقت ان يحتل مقعد المخطط الاستراتيجي .
او يتحدث الاوحد بلسان هذا المخطط الوهمي .

كان على هذا الجيل ان يصنع كل هذا ، وما زال عليه ان
يصنعه ، وكان عليه وما زال ان يصنع نفسه في آن واحد . وكان
على ان اذكر الآلاف من اللحظات والكلمات والمواقف . وفي اول مرة
انفردت فيها بحجازي سألته عن القصيدة التي سيلقيها في مهرجان
ابي تمام في الموصل .

كان عنوانها : مرثية العمر الجميل .
ولكن القصيدة لم تكن ترثي عمرا جميلا فقط ، بقدر ما كانت
تشر بعمر آخر اكثر جمالا لانه اكثر وعيا واثرى بالمعرفة واقل
استعدادا للانخداع . .

هذه آخر الارض ، لم يبق الا الفراق
ساسوي هنالك قبرا

واجعل شاهده مزقة من لوائك
ثم اقول سلاما !

زمن الغزوات مضى ، والفراق ،
ذهبوا ورجعنا يتامى .

هل سوى زهرتين اضمهما فوق قبرك
ثم امزق عن قدمي الوثاق .

انني قد تبعتك من اول الحلم ،
من اول الياس حتى نهايته

ووفيت اللاماما

ورحلت وراؤك من مستحيل ، الى مستحيل .

هكذا تبدأ قصيدة الشاعر الذي كان احد من حملوا القاهرة
الى الموصل ، وحملوا معهم ملامح الجيل الذي اعطى القاهرة ملامحها ،
وكشف لها عن جنورها ، وحاول ان يشارك في صنع مستقبلها . . .
طوال عشرين عاما . . . وها هو الشاعر يعلن ان حلمه ما زال كما هو .

انني احلم الآن ، بيتي كان بغرناطة
بعث قيثارتي ، واشترت طعاما